النقد الجائر

بقلم رضوان ابراهيم

يحلو لبعض الأدباء احياناً ان يتهجموا بالباطل على تراثنا الادبي ، ويحاولون ان يتنقصوه ، وان يحطوا من شأنه بغير الحق .

وتلك فرية لو تسمّحنا فيها لصغار الادباء الذين يحاولون ان يبرزوا ويتطاولوا ، وان يبنوا صروحهم بانقاض هذا التراث — فلن نغتفرها لأولئك الشيوخ الذين يزعمون لأنفسهم الصدارة في دنيا الادب والنقد ، أو تواتيهم الفرص ان يمثلوا دور العرجى في حي المقعدين .

ويبقى بعد ذلك تساؤلنا حائراً عن الدوافع الخبيثة الهدامة التي يستهدفونها في هذه الهجمات المغرضة التي تخرج ماضينا الادبي في صورة باهتة مهزولة ، وتظهر ادباءنا في مباذل الافاقين والمشعوذين ، وتجرح هذا التراث كله ، فتشيع في الناس انه حثالة لا يصلح لشيء ، ولا يبقى منه شيء جدير بالاعزاز أو الفخار ، ويبقى شباب الادباء ، وناشئة المتأدبين في العالم العربي بلا مثل ولا قدوة ، وما اوقحها جناية على الماضي والحاضر والمستقبل !

فماذا يبقى لنا — إذن — من مجد فكري نبقي عليه ونتأثره ، ونحن نراه — كما يزعمون — إفكاً وبهتاناً !؟

وبماذا نعتز ، وقد اوهمونا ان مابين ايدينا منه هباء وبهرج زائف لا يثبت على النقد ؟

ومن اسف ان اكثر من يستهدفون لهذا الهجوم ممن استأثرت بهم الحياة الباقية ، واحتضنتهم الدار الآخرة ، وصاروا في مواكب التاريخ ، فأفسح لهم من صدره ، وأنزلهم في رحابه ... ترى ، هل كان يحيق بهم ظلم الظالمين لو كانوا احياء !

* * *

من الناس من لا يعجبهم إلا ان ينبشوا القبور ، ليبحثوا بين امواج رمالها البيضاء عن حمأة يشهرون بها ، وإلا ان يطمسوا معالم الطريق بين يدي الأجيال المنطلقة ، ويشككوهم في القيم الأدبية وفي الروائع التي صارعت عدوان الزمن .. وإلا ان يثيروا الغبار في وجه الموكب ، وهم يحسبون انهم يردونه عن الغاية ، ويظنون انهم بضجيجهم الصاخب هذا يحولون مجرى العدالة .. عدالة التاريخ قاضي الأجيال ..

فالمتنبي عندهم ليس بشاعر ؛ لانه طامع يتخذ الشعر وسيلة لأطماعه ..

وأبو تمام ليس بشاعر ؛ لانه اتخذ من شعره معرضاً لدخيل العلوم وصناعة البديع ..

والبحتري ليس بشاعر ؛ لانه لم يتأثر بالبيئة الثقافية المحيطة به .

وأبو العلاء ليس بشاعر ؛ لانه فيلسوف حمل الشعر مالا يحتمل وألزمه ما لا يلزم !.

وشوقي ليس بشاعر ؛ لانه مدح الاقطاعيين وحطب في حبالهم !

والبارودي مقلد .. وحافظ خطيب ..

.. هكذا يخلطون ، وهكذا يسفسطون ، حتى لا يبقى في العرب أقدمون ولا محدثون !

ومثل ذلك يندد ون بالكتاب ..

.. فابن المقفع مترجم ينقل افكار الفرس وغيرهم .

والجاحظ معرض مشوش من الافكار والآراء والمعارف لم تتميز فيه موهبة اصيلة ، ولم تنضج فيه ملكة ممتازة ..

والمنفلوطي منشيء يرص الكلام بعضه الى بعض ، وليس بكاتب ذي فكرة ..

والرافعي سطحي النظرة ، يعاظل الفاظ اللغة ، ويوصي بالفقر ، ويعلم الناس الخنوع ..

بمثل هذا تتردد ألسنة فئة هدامة من نقاد اليوم ، وبمثل هذا يرون انهم امسكوا المعاول ، وهدموا هذه الصروح ، ثم وقفوا على انقاضها يتنفسون الصعداء .

لا ندري لماذا ، لاننا لا نعرف لهم هدفاً من وراء تحطيم هؤلاء الأعلام ، وربما كانوا هم ايضاً لا يعرفون .

ولكن التاريخ يقف من ورائهم مقهقهاً ساخراً ، مشفقاً من الجهود التي ينفقونها على غير طائل .

* * *

لا .. لا .. رويدكم ايها السادة !!

فنحن نظلم الواقع ، ونظلم الزمن إذا طبقنا على أسلافنا القريبين او البعيدين مقاييس النقد الحديث ، او اقمنا لهم من مزاجنا موازين جائرة مختلفة . فما على الامزجة الفردية ، او الاحداث الطارئة او الاهواء المتقلبة تستوى مبادىء النقد الاصيل.

ونحن اذا تناسينا البيئة الادبية او السياسية او الاجتماعية التي يندمج فيها الاديب ، أو الحياة التي يحياها الشاعر ، او اغفلنا حساب الزمن ومبدأ التطور — فما أنصفنا الأدب ولا النقد ولا طبائع الأشياء .

* * *

من ابرز سمات النقد الجائر الذي يتردد على ألسنة هؤلاء المهاجمين اليوم اتهام ادبائنا الموتى بالأقطاعية والرجعية والنفاق، وإهدار مزاياهم جميعاً لهذه النظرة الخاطئة التي يرمون بحاصبها زوراً وبهتاناً من هؤلاء الذين نصبوا انفسهم حكاما او متحكمين في مصائر الأدب .

وأخص هؤلاء المفترى عليهم اليوم شوقي والرافعي .

فمن الظلم ان يرمى شاعر مثل أحمد شوقي او كاتب مثل مصطفى صادق الرافعي بالاقطاعية أو النفعية أو النفاق جزافاً .

فاذا مجد شوقي إسماعيل ، أو أشاد بتوفيق وأضفى على فؤاد ، فلماذا نسمي ذلك نفاقاً ولا نسميه وفاء لمن أسبغوا عليه الرغد والرفاهية ، ما دام منبعثاً عن عاطفة صادقة ؟؟

ومنذ متى كان الوفاء نفاقاً ، وما من هؤلاء المتطاولين على شوقي إلا تمنى بجدع الأنف ان يلج هذه الأبواب ، لولا انها امتنعت عليه ، وأمعنت في صدودها ، فارتد عنها وهو يقول : ان عنبها حصرم ؟!!

على ان شوقي كان صورة حية للفن في تطوره ، فاذا كان التطور في طبيعة الاحياء، واذا كان التطور السريع من سمات الفن ، فقد كان شوقي مثلاً بارعاً لهذا المبدأ ، فشعره مرآة صافية انعكست عليها احداث هذه الفترة المتقلبة التي عاشها بما فيها من حلو ومر .

نشأ في القصر، فكان شعره المبكر تعبيراً صادقاً عن الوفاء للقصر ، ثم اتصل بالوسط الأرستقراطي خارج القصر ، فمدح ، ورثى، ووصف ما التمع في مرآة حياته بطريقة فيها الكثير من الصدق والكثير من الأصالة .

ثم كانت سلسلة متلاحقة من الزلازل التي كان أولها الحرب، وليس آخرها النفي ولا الثورة المصرية التي اعقبت الحرب ، فكان شوقي لحن الوطنية المدوي ، وأغنيتها العذبة ، وسجل احداثها المتتابعة .

وبينما كان يمزج في شعره بين الوطنية وبين اولياء نعمته الذين خدع في ولائهم للوطن ، كان هناك شاعر او كاتب من ثوار تلك الفترة الذين لا نجحد فضلهم ، والذين اجترأوا على هذه المقامات التي كانت سامية يومذاك ، فهاجموها ، ولكن هذه الجرأة وتلك الهجمات لم تنتج أثرها المرجو ، ولم تمهد للثورة بقدر ما مهد لها شعر شوقي الذي كان خميرة للثورة يشيعها في روح الشعب ، وبقدر ما كانت ألحانه باعثة لتلك الرجفة في اعصاب الشعب الذي استجمع طويلاً ، والذي استجمعت معه الاجيال التالية متربصة لهذه الوثبة المباركة .

واشعار شوقي التي يتغنى بها الشعب ، والتي ألهبت حماسته اكثر من ان نستشهد لها ، واثرها في ثوراتنا الموفقة اوضح من أن توضح .

فلم إذن ننظر الى شوقي وامثاله من الزوايا المظلمة ، لنتهمه بالترويج للرجعية والاقطاعية ؟ ولماذا لا نقدر فيه هذا التطور المساير لروح النهضة ؟

ولماذا ننكر عليه انه مدح يوماً من لا يستأهل في نظرنا هذا المدح ، ثم عاد الى حظيرة الشعب ، وساير نهضته ، ووقف عليها شعره ؟

هل من المفروض ان يتخلى الأديب عن جزء من حياته ليعد في التقدميين ؟ هل في الممكن ان يتخلى الانسان عن عضو من جسمه: يده أو رجله مثلاً لأنها عاشت معه حياة الطفولة الضعيفة أو الصبا الغض ؟

* * *

ليس معنى النهضة ان نقتطع جزءاً من تاريخنا ، او ننسى ماضينا مهما كان اسود، وإلا فما يدري الاجيال المقبلة اننا تطورنا؟

ما بال روما لم تنسَ نيرون وقد تلظت في ناره ؟ وما بال الانسانية لم تنسَ الطوفان وقد كاد يأتي عليها ؟!!

* * *

ليس ذلك دفاعاً عن شوقي ، فأنا ممن ينكرون عليه مدائحه التقليدية الباردة التي استهل بها حياته الادبية، وذلك من ابرز عيوبه.

ولكننا اذا نظرنا الى مدائحه بعد تلك الفترة رأيناها تتحول

— البقية على الصفحة ٤٧ —